كلمة الدكتور عيسى العاكوب
في حفل استقباله

السيّد الأستاذ الدكتور محمد مروان محاسني رئيس المجمع المحترم

السادة العلماء الأجلاّء, أعضاء المجمع

أساتذتي الفضلاء

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد,

فاسمحوا لي, أيْ أرباب الفضل, بأن أعبّر عن جزيل شكري ووافر اعترافي بالجميل, لما طوّقني به مجمعكم العلميّ الكريم من إحسان بأن أذِن لي بالانضمام إلى حبّات عقده الذي يزْدَان به صدر العربيّة, ويزدان هو أيضًا بها. ذلك لأنّها اللغة التي شرّفتها السماء والأرض, وصار العالم بفضلها عربيَّ اليد والقلب واللسان في حقبة غير يسيرة من تاريخ الإنسانيّة المتحضّرة.

ووافرُ الشّكر الذي يعزّ على الكلمات نقلُ آياته واجبٌ خاصّةً لأستاذ مجمعيّ جليل, نبتَ في حمى العربيّة, وشبّ على إشراقها وأَلَقِها, وحباها عصارةَ ذهنه الوقّاد, وتعلّمها عليه على امتداد عقود، جيش من الدارسين في سورية والجزائر وقطر وبلدان أُخَر كثيرة. أقول: وافر الشكر لأستاذي الكبير الدكتور مازن المبارك الذي طوّقني

بفضلٍ لا إخال أنّ الأيّام ستنسيني إيّاه حين قدّمني لهذا الجمهور الطيّب. هذا الأستاذُ الذي ما رأيتُه إلاّ ذكرتُ قول زهير:

تــراه إذا مــا جئتَــه مــتهلّلاً كأنـكَ تعطيـه الـذي أنـت سـائلُه

فأجزلَ له ربي سبحانه المثوبة ومدّ في عمره ونفع به العربيّةَ وأهلها.

شَكَرَ اللهُ أيضًا سعيَ أستاذي الغالي الدكتور محمود الرّبداويّ, الذي أكرمني بتوجيهه وإشرافه في مرحلة إعدادي بحث الدكتوراه في البلاغة والنقد في قسم اللغة العربية من جامعة دمشق.

وأجدني ههنا مدعوًّا أيضًا إلى إسداء آيات الشكر الذي يعزّ تحديد قدره إلى كلّ مَنْ أسهم على نحوٍ أو آخر في إتاحة فرصة انتظامي في هذه الكوكبة اللألاءة وتيسير نيلي هذا الشرفَ. ولا يعتريني أيّ قدرٍ من التردّد في الاعتقاد بأنّ الأمرَ, في النهاية, فضلٌ من الله يؤتيه من يشاء, فكلٌّ مهيّأ لما خُلق له. فله الحمد, سبحانه, كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

أيّها العلماء الأجلاّء,

تلكم كلمات استدعاها المقام واقتضاها الحال. أمّا الموضوع الرئيسيّ الذي سأدير حوله حديثي فهو سلفي الكبير الذي اخترتُ أنْ أحتلّ مقعده, العلاّمةُ عيسى إسكندر المعلوف. وسأجعل حديثي في خمسة أقسام:

١- نشأة المعلوف وتحصيلُه العلميّ ومُنجَزُه في التعليم والصحافة والتأليف والمحاضرة.

٢- المعلوف المجمعيّ.

٣- المعلوف وعلماءُ عصره.

٤- وفاته وشهاداتُ أهل العلم فيه.

٥- ملحق في مؤلّفاته المطبوعة والمخطوطة.

–١–

نشأةُ المعلوف وتحصيله العلميّ ومنجزه في التعليم والصحافة والتأليف والمحاضرة:

في الحادي عشر من نيسان عام ١٨٦٩م (أوائل عام ١٢٨٦هـ) رُزق المحامي وقائد الدرك اللبناني زمنَ العثمانيين في بعبدا (لبنان), السيّدُ إسكندر المعلوف, ولدًا سمّاه عيسى, وذلك في قرية (كفر عقاب) اللبنانيّة, وهي من قرى قضاء المتن في جبل لبنان. ويبدو أنّ الأسرة تنتسب إلى الأزْدِ, العرب اليمانيّين المعروفين, وإلى فرعٍ منهم هم الغساسنة الذين جاؤوا حوران من اليمن, ثمّ جاؤوا لبنان في القرن الخامس عشر الميلاديّ.

تلقّى مبادئ العلوم في قريته, ثمّ في عام ١٨٨٤م التحق لسنة واحدة بمدرسة الشوير العالية, ودرس الإنكليزيّة والعربيّة. ثمّ انكبّ ينهل بنفسه من آداب العربيّة, وتعلّم شيئًا من الإنكليزيّة وشيئًا من الفرنسيّة.

ويذهب بعض من كتبوا شيئًا من سيرة حياته إلى أنّه أقبل على الدرس مبكّرًا, وأخذ يجمع الكتب والمخطوطات, إلى أن استقام عوده في علوم العربيّة, وبلغ في تحصيلها درجة الإتقان.

في عام ١٨٩٨م, تزوّج من السيّدة عفيفة كريمة إبراهيم باشا المعلوف من زحلة, وهي شقيقة الشعراء قيصر وميشال وشاهين المعلوف. ثمّ أصبحت السيّدة عفيفة أمًّا لثلاثة شعراء, هم فوزي وشفيق ورياض.

وتذكر الأخبار أنّ الأستاذ عيسى المعلوف عُرِفَ في حياته بأنّه لا يحبّ الظهور, وأنّه طيّب السريرة, وأنّه لا يملّ العمل, وكان لديه استعدادٌ لتقديم ما يُطلب منه,

ونفورٌ من حفلات التكريم, وشغفٌ بالبحث والتحقيق والتمحيص, وميلٌ إلى الابتعاد عن المجادلات الدينيّة والسياسيّة.

توزّعتْ جهود عيسى المعلوف العلميّة والبحثيّة على ثلاثة اهتمامات رئيسية, هي التعليم والصحافة والتأليف.

ففي مجال التعليم, ابتدأ حياته معلّمًا في بلدته في مدرسة الآباء اليسوعيّين بضع سنين. ثمّ في عام ١٨٩٣م انتُدب لتدريس العربيّة والإنكليزيّة والرياضيات في مدرسة كفتين الأرثوذكسيّة قريبًا من طرابلس, إذْ أمضى ثمّة أربع سنوات. ثمّ عُيّن مدّةً مديرًا لمدرسة دوما البترون.

في عام ١٩٠٠م انتُدب للتدريس في الكلّية الشرقيّة في زحلة, حيث درّس العربيّة والإنكليزيّة والرياضيّات. وفي هذه المدرسة أظهر نشاطًا كبيرًا؛ فكان يلقي ثمّة الخطب والمحاضرات, وأنشأ فيها «جمعيّة النهضة العلميّة» لتمرين الطلبة على الخطابة والنقاش العلميّ, ثمّ أنشأ ثمّة جريدة «المهذّب».

ترك هذه المدرسة بعد مدة, وصار مدرّسًا في الأُسقفيّة الكاثوليكيّة في زحلة. ثمّ انتُدب بعد ذلك لإدارة مدارس الأرثوذكس في دمشق, فأحسن إدارتها, وأسّس هناك في عام ١٩٠٩م مجلّة «النعمة» الشهريّة, وحرّرها مدّة طويلة.

في عام ١٩١٣م, دُعي للتدريس في مدرسة سوق الغرب الأمريكيّة, ثمّ انتُدب للتدريس في مدرسة ثلاثة الأقمار في بيروت, ودام ذلك أشهرًا قليلة, إذْ أُعلنت الحرب الأولى.

أمّا الصحافة فقد خصّها الأستاذ المعلوف بشطرٍ كبير من اهتمامه, ويبدو أنّه كان يجد فيها وسيلةً ناجحةً لإيصال خبراته ومعارفه وعلومه. كما يتراءى أنّها مثّلت لديه ما يشبه التعليم التطبيقيّ المعزِّز للتعليم النظريّ. ويتبيّن من الأخبار التي سقطت إلينا أنّ

إدارة الصحافة والكتابة فيها كانتا في ذلك العصر نشاطًا محفوفًا بالمخاطر؛ لأسباب ليس من العسير أنْ يعرفها متأمّل المرحلة التاريخيّة التي نحن إزاءها.

وأيًّا تكن الحال, فإنّ العلاّمة المعلوف عمل بدءًا من كانون الأوّل عام ١٨٩٠م محرِّرًا في جريدة لبنان لصاحبها إبراهيم الأسود في بعبدا, مركز متصرّفيّة لبنان الشَّتويّ, وكان ينشر فيها مقالاته المتنوّعة في الأدب والعمران والتاريخ. وفي هذه الأثناء كان ينزل إلى بيروت ويشارك في مجالس العلاّمة المرحوم إبراهيم اليازجي مع خليل مطران والأدباء خليل البدوي ونجيب المشعلاني وسليم سركيس ونجيب الشَّوشاني, مرّةً أو مرّتين في الأسبوع.

وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّه أنشأ في عام ١٩٠١م في المدرسة الشرقيّة جريدة «المهذّب» التي طُبعت مدّةً على الهلام, ثمّ صارت تُطبع بالحروف. وقد اشتغل في هذه المرحلة بالتأليف ونشر المقالات في كُبريات المجلاّت, كالمقتطف والهلال والمشرق... وتقدّم أيضًا أنّه أنشأ في عام ١٩٠٩م مجلّة «النعمة» في دمشق, وهي شهريّة, وظلّ يحرّرها مدّة طويلة. وفي عام ١٩١١م أنشأ مجلّة «الآثار», وقد استمرّت في الصدور حتّى عام ١٩١٤م, وكانت «منبرًا لأقلام كبار الأدباء والكتّاب في سورية ولبنان والعراق ومصر». كما يُذكر أنّه حضر المؤتمر الصحافي في عاليه في مطلع عام ١٩١٣م, وكان من أعضائه العاملين.

وأمّا التأليف فقد كان شاغلاً أساسيًّا للمعلوف؛ يستيقن المرء ذلك وهو يطّلع على قائمة الكتب التي تركها منشورةً أو مخطوطة. فقد أحصى له كتاب «العلاّمة المرحوم عيسى إسكندر المعلوف عضو المجامع العلمية العربيّة», الذي نشرته مجلّة «الرسالة المخلصيّة» بإشراف نجله الأديب رياض معلوف, عناوينَ لعشرين كتابًا

مطبوعًا في موضوعات مختلفة, أظهرُها الكتابة والشعر والأخلاق والتاريخ والتربية والطبّ والحِرف التراثيّة وسِيَر الأعلام وتواريخ الأسر...

وأمّا مؤلفاته المخطوطة فقد تجاوز بها الستين كتابًا.

ويُفهم من عناوين الكتب التي ألّفها أنّه عالمٌ موسوعيّ, ومثقّفٌ غزير المحفوظ, ومدقّقٌ تُرضى حكومته في كثير من قضايا العلم والثقافة, وأستاذٌ مبرِّزٌ في العربيّة لغةً ونحوًا وصرفًا وبلاغةً وكتابةً ومعجمًا. وقد ألّف مجموعةً من الشروح الشعريّة والكتب التعليميّة في علوم البلاغة وإنشاء المقالات والرسائل وفي الإعراب, وله أيضًا عددٌ من الدراسات النقديّة التي تناول فيها أشعار فئات خاصّة من الشعراء.

يضاف إلى هذا كلّه أنّ المعلوف كان مهتمًّا بجمع نفائس الكتب المطبوعة والمخطوطة. وقد ذكر الأستاذ يوسف عبد الأحد في مقال مدوّن بخط يده أنّ مكتبة المعلوف ضمّت نحو ١٢٠٠ مخطوط نادر وعشرين ألف كتاب في مواضيع متنوّعة في الدين والشعر والتاريخ والأدب والنحو والفلسفة والفلك والحساب والخطوط والحقوق والمعاجم واللغات, ومجموعات من مجلاّت المقتطف والهلال والعصبة الأندلسيّة والمسرّة وغيرها. ولشدّة ولعه بالكتب قال:

اجعلوا إنْ متُّ يومًا كفني ورق الكتْبِ وقبري المكتبة
وادفِنوني, وادفِنوا الكتْبَ معي وانشروا الأوراق حول المرتبة

ويبدو أنّ هذه المكتبة ساعدت الأستاذ عيسى المعلوف على الإتقان والتوثيق في عمله التأليفي, لأنّه كان في متناول يده هذا العددُ الهائل من الكتب القيّمة. ولعلّ ذلك أيضًا ما جعل «الزوّار من مستشرقين ووطنيّين يزورونه باحثين في مخطوطاته ومجاميعه ومؤلّفاته النفيسة, معجبين به وبكرم أخلاقه وإيقافه زوّاره على نفائِس ما لديه, ممّا كان يحملهم دائمًا على شكره في الصحف والمجلاّت» (العلاّمة المرحوم عيسى إسكندر المعلوف, ص٩).

وابتغاء إكمال التعريف به سيكون ثمّة ملحقٌ بعناوين كتبه المطبوعة والمخطوطة. ولعلّه من تمام صورة العمل التأليفيّ عند الأستاذ عيسى المعلوف الإشارةُ إلى المقالاتِ المتنوّعة الموضوعات التي كان يسطّرها في الصحف والمجلاّت الكثيرة في لبنان وسورية ومصر, وكذلك المحاضراتِ التي كان يلقيها في بيروت والقاهرة ودمشق وحلب وزحلة, وهي بالمئات.

ولا غنى أيضًا عن التذكير بأنّ العلاّمة المعلوف كاتبٌ روائيّ, إذْ تدلّ قائمة مؤلّفاته المخطوطة على أنّه كتب ثلاث روايات تمثيليّة شعريّة غنائيّة, يبدو أنّ الأولى منها ذاتُ أصلٍ روسيّ, وهي رواية مقتل بطرس الأكبر لولده ألكسيس. والثانية هي رواية «جزاء المعروف», وتدور حول حادثة خزيمة بن بشر مع سليمان بن عبد الملك. والثالثة هي «إنجاز الميثاق في فدية إسحاق», وتدور حول إرادة إبراهيم عليه السلام ذَبْحَ ابنه إسحاق [كذا] (انظر: العلاّمة المرحوم عيسى إسكندر المعلوف, ص١٧).

وقد توّج المعلوف هذه المهارات الإبداعيّة بإسهامٍ جيّد في ديوان العرب المؤثَر؛ أي فنّ الشعر. ويتجلّى ذلك في ديوانه الذي عنوانه «بنات الأفكار». ويقول مؤلّف «العلاّمة المرحوم عيسى إسكندر المعلوف» في شأن مصنّفه هذا: «وهو ديوانه الشعريّ ما عدا شعر الصّبا فإنّه [مجموع] في رسالة صغيرة. وهذا الديوان في فنون الشعر من تشطير وتخميس ونحوهما, وبعده المدائحُ والمراثي والمقطعات والتواريخ الشعريّة والشعر العلميّ والعصريّ والمترجَم عن اللغات والأناشيد...» (ص١٧). ويبدو أنّ له أشعارًا في مجاميع أخر.

–٢–

المعلوف المجمعيّ:

إنّ حكاية الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف مع المجامع اللغويّة العربيّة على قدرٍ كبيرٍ من الإثارة. بل يصحّ أن يقال في شأنه معها ما قاله أبو العتاهية في مدح الخليفة المهديّ:

أتتـــــه الخـــــلافة منقـــــادةً إليـــــه تجـــــرِّرُ أذيالَهـــــا
ولم تـــــكُ تـــــصلحُ إلاّ لـــــه ولم يـــــكُ يـــــصلح إلاّ لهـــــا

ولعلّ المرء لا يعدو الحقيقة حين يقول إنّ ما أسداه المعلوف من خدمات سنيّة للعربيّة تعليمًا وتأليفًا ومحاضرةً وتحقيقًا أغرى المجامع به, ودفعها إلى استقباله والاحتفاء به؛ انتظارًا لإسهامه المحتلى في الارتقاء بأعمالها. وعندما انتهت الحرب الأولى ودخل العرب والإنكليز دمشق, طُلب عيسى إلى دمشق وعيّنه نائبُ الأمير فيصل (شقيقُه الأمير زيد) عضوًا في شعبة الترجمة والتأليف, في كانون الثاني ١٩١٨م. ثمّ حُوّلت تلك الشعبة إلى ديوان المعارف. ثمّ في الثامن من حزيران (يونيو) عام ١٩١٩م أصبح عيسى عضوًا في المجمع العلميّ العربيّ الذي كان قبل ذلك ديوانَ المعارف «وقد حضر مع زملائه السبعة مؤسّسي المجمع الجلسةَ الأولى التي عُقدتْ في المدرسة العادليّة بتاريخ ٣٠ تمّوز (يوليو) ١٩١٩م, وكان من أعضاء القسم اللغويّ الأدبيّ في المجمع» (مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق– عدد خاصّ بمناسبة انقضاء خمسين سنة على تأسيس المجمع, شوّال ١٣٨٨هـ, كانون الثاني ١٩٦٩م– مقال بعنوان: عيسى إسكندر المعلوف, بقلم الأستاذ عدنان الخطيب, ص٢٤١).

ويبدو أنّ أعمال المجمع شهدت توقّفًا عند دخول المحتلّ الفرنسيّ سورية, لكنّه عاد إلى نشاطه, وهكذا «عُيّن عيسى إسكندر المعلوف, بتاريخ ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١م, عضوًا متفرّغًا في المجمع, فأخذ يكتب ويحاضر وينشر في مجلّته المقالات التاريخيّة والاجتماعيّة والأدبيّة واللغويّة والتعريفات الدقيقة لنفائس الآثار والمخطوطات والكتب الجديدة, بما عُرف عنه من علم غزير ودأب على المراجعة والتحقيق...» (نفسه). هذا وينطوي الجزء الأوّل من كتاب (محاضرات المجمع العلميّ العربيّ) الذي طُبع في عام ١٩٢٥م على ثلاث محاضرات كان المعلوف قد ألقاها في قاعة المجمع.

وبسبب اجتهاد المعلوف المتواصل تأليفًا ومحاضرةً وكتابةً في الصحافة, انهدّت صحّته

فاستقال من المجمع في الثامن من تمّوز عام ١٩٢٥م, وعاد إلى زحلة يشتغل بالمطالعة وترتيب خزانة كتبه الكبيرة وتسجيل الملاحظات والتعليقات على المخطوطات التي كانت في حوزته. «وظلّ عضوًا مراسلاً للمجمع العلميّ العربيّ في لبنان, وما انقطع أبدًا عن مراسلته والتحرير في مجلّته بعد ذلك خلال سنوات عديدةٍ» (نفسه, ص٢٤٢).

وفي مطلع عام ١٩٢٨م, عُيّن عضوًا في المجمع العلميّ اللبنانيّ في بيروت, وكان يحضر جلساته على نحو منظّم, ويلقي الخطب, لكنّ هذا المجمع لم يستمرّ طويلاً.

وعندما أنشئ مجمع اللغة العربيّة في القاهرة في عام ١٩٣٣م باسم مجمع فؤاد الأوّل للّغة العربيّة, كان عيسى المعلوف واحدًا من أعضائه الرّوّاد. وقد أرسى هو وزملاؤه المؤسّسون دعائمَ هذا الصّرح العلميّ المعطاء, وشارك في لجانه وكتَبَ في مجلّته بعض البحوث اللغويّة. ويبدو أنّه استمرّ في حضور جلسات هذا المجمع كلّ عام, إلى أن ساءت صحّته في سنة ١٩٥٢م, فاستقال من المجمع, فانتخب عضوًا فخريًّا فيه. وفي عام ١٩٣٦م, عُيّن الأستاذ المعلوف عضوًا في مجمع التاريخ والآداب في مدينة نيتوراي عاصمة ولاية ريو دي جانيرو, وذلك في منشور خاصّ باللغة البرازيليّة.

ويُفهم ممّا تقدّم أنّ الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف كان علَمًا من أعلام اللغة العربيّة, وسادنًا من سدنتها المخلصين؛ خدَمَها بفكره المستنير ومعارفه الجمّة وتحقيقاته الدقيقة وتآليفه الجامعة ونَظْمه العَذْب. وقد استحقّ بذلك كلّه أن يكون نجمًا في سمائها تجتليه الأعينُ شرقًا وغربًا. وليس غريبًا والحالُ كذلك أن تفسح له المجامعُ اللغويّة العربيّة الناشئة صدورَ مجالسها؛ ليرفدها بزاد وافر من ثقافةٍ عربيّة أصيلة بانيةٍ مربّية مقوِّمة. وكان هو وأمثالُه من معاصريه يرون في خدمة هذه اللغة وثقافتها فَرْض عَيْن لا بدّ من أدائه والوفاء بمستلزماته.

وتقديرًا للمنزلة العليّة التي احتلّها الأستاذ عيسى المعلوف في خدمة العربيّة والعروبة, منحته حكومةُ لبنان وسام الاستحقاق اللبنانيّ, في الثالث عشر من شباط

عام ١٩٣٤م. ومنحته الحكومة السوريّة وسام الاستحقاق السوريّ, صيف عام ١٩٣٦م. ومنحه مجمع اللغة العربيّة في القاهرة الذي هو أحد أعضائه ميداليّة المجمع.

-٣-

المعلوف وعلماء عصره:

تُظهر سيرة حياة المعلوف أنّه كان من صنف البشر الذين يألفون ويؤلفون, ومن ذوي الفضل الذين لا يبخلون بفضلهم. وإذا كان العلْمُ رحمًا بين أهله كما يقال, فإنّ الأستاذ المعلوف ممّن رعوا حقَّ هذه الرحم حقّ الرعاية.وفي كتيّب «رسائل العلماء إلى العلاّمة عيسى إسكندر المعلوف» التي جمعها ونسّقها ولخّصها الأستاذ رياضُ المعلوف, نجلُ الأستاذ عيسى, ونشرها مجمع اللغة العربيّة في دمشق عام ١٩٨٧م, يجد المرء أسماء أربعة وخمسين عالمًا من الشرق والغرب, ومن العرب وغيرهم, تبادلوا الرسائل مع المعلوف. وفي التقديم الذي أعدّه الأستاذ رياض لهذه الرسائل نجده يقول: «إنّه لمن دواعي فخري واعتزازي إطلاقُ هذه الرسائل من بوتقة الجمود إلى عالم القرّاء الفسيح, ونفضُ غبار الأيّام عن حروف كلماتها ليستأنس بها قُرّاءُ لبنان والوطن العربيّ وبلاد الاستشراق, ويطّلع المفكّرون والمثقّفون على مطارحات وسؤالات واستطلاعات أدبيّة ولغويّة وتاريخيّة» (رسائل العلماء, ص٨).

ومن أعلام الأدب والثقافة والشعر الذين أُثبتت رسائل منهم إلى الأستاذ عيسى, الشيخُ إبراهيم اليازجي والأب لويس شيخو والأديبة ميّ زيادة والحاج أمين الحسيني وأمين نخلة وسامي الدهّان وقسطاكي الحمصي والمستشرق مرغليوث والمستشرق براون والأب لويس المعلوف ومصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعيّ وأمين الرّيحاني وسليم العنحوري وحسين علي محفوظ والأب أنستاس الكرملي والأستاذ محمّد كرد علي ومحمود تيمور وجرجي زيدان...

وفي رسالة من الشاعر قسطاكي الحمصي إلى الأستاذ عيسى في ٢٧ آذار عام ١٩٠٩م, يقول قسطاكي في مَدْح المعلوف:

لله درُّكَ هــل شــرحتَ طروســا أم تلـك آيٌ, أم جَلَـوْتَ عروسـا
أهــديْتَنا سِــفْرًا نــشرْت بــه لنــا قومًـا يكـاد يكـون مـنهم موسـى
أحييــتَ مـنهم غـيرَ ذِكْـرٍ طـامسٍ لا بِدْعَ إنْ أحييتَ, إنّك عيسى

(رسائل العلماء, ص٢٧)

والحقيقة أنّ هذه الرسائل, على قِصَرها, تلقي ضوءًا على السجايا الشخصيّة للأستاذ المعلوف, وتسعف في رسم جزئيّات صورته التي ارتسمت في أذهان أصدقائه وعارفيه. ومن ذلك مثلاً ما يقوله له أمينُ الريحانيّ في إحدى رسائله له: «سلامٌ أرقّ من زنبق الوادي ومن أزاهر الحقول, وما أجملها في هذه الأيّام! الشام جنّةٌ, ولبنان رأس الجمال فيها. وليتني وإيّاكم على مقربةٍ تمكّننا من المشاهدة والمحادثة ومُبادلة الآراء. ولا بدّ للكاتب من رفيق دقيق النظر, صريح الرأي, جزيل العلم, مثلكم ومثل محمّد كرد علي وفارس الخوري والمغربي» (رسائل, ص٣٢). وهكذا يوصف المعلوف بدقّة النظر وصراحة الرأي وغزارة العلم, ويُقرن في هذه الخلال بالأستاذ محمد كرد علي وبفارس الخوري وبالمغربيّ.

ويتبيّن من بعض الرسائل أنّ عيسى المعلوف كان من أهل التحقيق والخبرة العلميّة والدراية بشؤون الحياة الواقعيّة؛ الذين يفزع إليهم علماءُ عصرهم لحلّ أمور استغلق عليهم فهمها في الحياة. ففي رسالةٍ إليه من جبران النحّاس, تلميذ الشيخ إبراهيم اليازجيّ, يسأله هذا عن أمر يتّصل بحساب المِساحة ممّا لم يفهمه, وذلك إذ يقول: «.. لا أجد بدًّا من الاستيضاح بعلم الأستاذ في أمر استغلق عليّ؛ فبين حجج البيوع في غرب لبنان ما تُعيّن فيه المساحة بالدرهم والقيراط والحبّة. وهذه في الأوزان والمكاييل أمرُها معلوم, وأمّا في المساحة فلم أجد لها ذكرًا غير (كَشْف الحجاب) للبستانيّ, ص٨٩ قال: الدرهمُ ٢٤ قيراطًا, والقيراطُ ٢٤ حبّةً, ولم يزد على ذلك. فلم نعلم ماذا يعنون بالدرهم ومَسْح الأرض. الأشبهُ أنّهم أرادوا

به مقدارًا من غلّة الأرض, ثمّ صار للمساحة. فهل من سبيل لمعرفة المساحة بالذراع المربّع لكلّ درهم؟» (رسائل العلماء, ص٣٦).

ويصفه الدكتور حسين علي محفوظ عضو مجمع اللّغة العربيّة في بغداد في رسالة منه إليه بـ«العلاّمة الجليل المؤرّخ الكبير شيخ علماء لبنان» (نفسه, ص٣٧).

-٤-

وفاتُه وشهادات أهل العلم فيه:

يبدو أنّ اجتهاد المعلوف في تحصيل المعرفة, وإيثاره في اكتساب العلم الانطلاقَ إلى الأعماق وترْكَ الشواطئ لمن يرضون بالكفاف, ممّا أسهم في هدّ جسمه واعتلال صحّته. كما أنّ نكبته بفقْدِ وَلَدِه البكر فوزي لا بدّ من أن تكون أثّرت في صحّته وعكّرت صفو عيشه. ويؤيّد هذا الذي نذهب إليه كتابٌ من كتبه سمّاه «سِفْر الأحزان», وهو جزآن, الأوّل في التوديع والفراق واللقاء, والثاني يوصف بأنّه: «حزنُ الأبد في رثاء الأهل والولد, في مجلّد كبير, وفيه وصفُ ما نُكب به المؤلّف من فَقْد ولدِه وبِكْرِه المأسوف عليه فوزي وبقيّة آله وأنسبائه». وكان عيسى المعلوف يخشى أن تتقدّم به السنّ أو أن يقعد به المرض, فيغدو كَلاًّ على غيره ثقيلَ الظلّ؛ ومن وَحْي هذه الخشية كان يقول:

دَعْـــوتي يـــاربِّ تلقـــى منـــكَ عفـــوًا مـــستمدّا
لا تثـــــقِّلْ فيَّ أرضًـــــا لا تُكـــــرِّه فيَّ عبـــــدا

ويُروى أنّ أحد أصحابه زاره وهو في سنّ الثمانين ووجده في هذه الزيارة طريح الفراش, فقال له: قد قال قبلك شاعر في الثمانين:

إنّ الثمـــانينَ - وبُلِّغْتَهـــا - قد أحوجت سمعي إلى ترجمانْ

فقال عيسى:

«إنّ الثمانيـــنَ وبُلِّغْتَـــها» قـد حمّلـتْ عيـنيَّ نظّـارتينْ

وأنهكتْ منّي صحيح القوى فحمّلت أُذنيَّ سمّاعتَيْنْ
شيخوخةٌ قد نغّصتْ عيشتي ذكرتُ من آفاتها آفتينْ

وأيًّا كانت الحال, فقد لبّى نداء ربّه صباحَ الثاني من تمّوز عام ١٩٥٦م, طاويًا سِفْرَ حياة امتدّت سبعةً وثمانين عامًا شغل شطرَها الأعظم بخدمة لغة أمّته وأدبها وثقافتها وتاريخها.وقد نعاه مجمع اللغة العربيّة في القاهرة على هذا النحو: «يُعربُ مجمع اللغة العربيّة عن بالغ أسفه لوفاة الأستاذ الكبير عيسى إسكندر المعلوف, الذي كان من طليعة أعضائه العاملين يومَ أُسّس. وقد أسهم في أعمال المجمع بما عُرف به من دأب على البحث ووفرة في الجهد ومشاركة في شتّى الدراسات اللغويّة مدى عمره المبارك. والمجمع إذ يفقد هذا العالم الجليل يبعث بأصدق التعزيات إلى أسرته, وإلى المجمعيّين في سائر البلاد العربيّة وكلّ أديب ومشتغل بالدرس والبحث عرف قدر الفقيد وأفضاله على الحركة الفكريّة والعربيّة» (مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق, عدد خاصّ بمناسبة انقضاء خمسين سنة على تأسيس المجمع, شوّال ١٣٨٨هـ/كانون الثاني ١٩٦٩م, ص٢٤٢).

وجاء نعيه في مجلّة المجمع العلميّ العربيّ في دمشق مبيِّنًا منزلته وفداحة خطْب المجمع بفقده على هذا النحو: «أَحَدُ أعضائه الأوائل, الذين شادوا صرْحه وأثّلوا مجْدَه, وحبّبوا العربيّة إلى أبنائها يومَ كان القومُ بين عازفٍ عنها منكرٍ لها, وجاهلٍ بها جاحدٍ فضلها... كان الفقيدُ كريم الخلق, هادئ الطبع, واسع الصدر, عميق الفكر, جمّ التواضع, عالي الهمّة, جوادًا بعلمه...» (نفسه, ص٢٤٢-٢٤٣).

وقال الأستاذ حامد عبد القادر الذي شغل مقعد الأستاذ المعلوف في مجمع اللغة العربيّة في القاهرة: «نشأ المعلوف منذ صباه محِبًّا للعلم, مجدًّا في طلبه, مكبًّا على البحث والدرس, مولعًا بنشر المعارف, حريصًا على أن ينفع مواطنيه بعلمه بتعليم النشء, وتربيتهم على أسس قويّة سليمة, ونَشْر المقالات الصافية في أمّهات الصحف والمجلاّت, وتأليف الكتب القيّمة في الأدب والتاريخ واللغة وسائر العلوم والفنون. وممّا

يدلّ على قيمة هذه المقالات أنّ كثيرًا منها تُرجم إلى التركيّة, والروسيّة, والفرنسيّة, والإنكليزيّة, والألمانيّة, والرومانيّة, والإيطاليّة» (نفسه).

وربّما يعبِّر خيرَ تعبير عن حياةِ المعلوف المثقلة بالجدّ في التحصيل والتحقيق والتأليف, وعظيمِ خدمته للغة أمّته وثقافتها وحضارتها وأجيالها, ما قاله الدكتور فؤاد صرّوف في حفل تكريم ذكرى عيسى المعلوف: «إنّ رجلاً يقضي ستّين سنةً أو تزيد, يبحث ويحقّق ويؤلّف ويحاضر وينشر ويخزن ما لا يُتاح نشره, ثمّ يبيحه للباحثين الذين يطلبونه, كما فعل بالمئات الخمس من مجموعة مخطوطاته التي اقتنتها مكتبةُ الجامعة الأمريكيّة, ويشترك اشتراكًا فاعلاً حصينًا في ثلاثة مجامع علميّة في دمشق وبيروت والقاهرة, فيشهد دوراتها ويسهم في مناقشاتها ومنشوراتها, ويصدر مجلّة الآثار, ويكتب لمجلّة المقتطف وغيرها, لهو حقًّا رجلٌ من الأقيال» (نفسه, ص٢٤٤).

ولعلّه من الفائدة بمكان هنا التذكيرُ بالمنزلة العليّة التي حظي بها عند الأستاذ محمّد كرد علي, رئيس المجمع العلميّ العربيّ. وتبدو هذه المنزلة جليّةً في رسالتين وجّههما إليه رئيسُ المجمع, يطلب منه في الأولى منهما إرسال ترجمة حياته وترجمة أحمد تيمور باشا, وفي الثانية يخبره بشأن من شؤون نشر مقالاته وملاحظاته في مجلّة المجمع وغيرها. واللاّفتُ للنظر أنّه في الرسالتين كلتيهما يخاطبه بلقب الأستاذ العلاّمة, وبلقب «سيّدي» (رسائل العلماء, ص٤١-٤٢).

-٥-

ملحق في مؤلّفاته المطبوعة والمخطوطة:

- مؤلّفاتُه المطبوعة:

١- الكتابة, بحث تاريخيّ أدبيّ (أربعة أجزاء) بعبدا, ١٨٩٥م.

٢- لمحة في الشعر والعصر, المطبعة العثمانيّة, بعبدا ١٨٩٨م.

٣- الأخلاق مجموع عادات, المطبعة الأدبيّة, ١٩٠٢م.

٤- المبكيات, مجموعة مراثٍ, ١٩٠٣م.

٥- دواني القطوف في تاريخ بني معلوف, المطبعة العثمانيّة, بعبدا ١٩٠٧م.

٦- الأمّ والمدرسة, المطبعة البطريركيّة, بيروت, ١٩١٠م.

٧- تاريخ مدينة زحلة, مطبعة زحلة الفتاة, ١٩١١م.

٨- تاريخ الأمير بشير الكبير, مطبعة زحلة الفتاة, ١٩١٤م.

٩- تاريخ الطبّ قبل العرب, بيروت, ١٩٢١م.

١٠- معارضات «ياليل الصبّ» مكتبة العرب, القاهرة, ١٩٢١م.

١١- تاريخ الطبّ عند العرب, دمشق, ١٩٢٢م.

١٢- تاريخ الطب عند الأمم القديمة والحديثة, دمشق, ١٩٢٤م.

١٣- صناعات دمشق القديمة, ١٩٢٤م.

١٤- دمشق القديمة, ١٩٢٤م.

١٥- ترجمة الأمير سيف الدولة ابن حمدان, ١٩٢٧م.

١٦- ذكرى البطريرك غريغوريوس الرّابع حدّاد, المطبعة الأدبيّة, بيروت, ١٩٣٠م.

١٧- ذكرى فوزي المعلوف, مطبعة زحلة الفتاة, ١٩٣١م.

١٨- كيف فتح إبراهيم باشا المصري عكّا, مطبعة زحلة الفتاة, ١٩٣٢م.

١٩- الأسر العربيّة المشهورة بالطبّ العربيّ وأشهر المخطوطات الطبّيّة, بيروت, ١٩٣٥م.

٢٠- الغرر التاريخيّة في الأسر اليازجيّة, مطبعة الرهبانيّة المخلصيّة, صيدا, ١٩٤٤م.

٢١- الأخلاق والعادات اللبنانيّة, الجامعة اللبنانيّة, بيروت ١٩٦٩م.

٢٢- قصر آل العظم في دمشق.

(اعتمدنا في هذه القائمة ما أثبته الأستاذ يوسف عبد الأحد في مقالته التي حملت عنوان «المؤرّخ عيسى إسكندر المعلوف», وهي بخطّ يده).

– مؤلّفاته المخطوطة:

١– تحفة المكاتب في المعرِّب والكاتب.
٢– الأخبار المدوّنة والمرويّة في أنساب الأسر الشرقيّة.
٣– أهمّ خزائن الكتب العربيّة في العالم.
٤– تاريخ سورية المجوّفة.
٥– معجم ألفاظ العربيّة العاميّة والدخيلة.
٦– مغاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر.
٧– الدرُّ الثمين في أدباء القرن العشرين.
٨– نوابغ النساء.
٩– الطرق الأدبيّة في تاريخ اللغة العربيّة.
١٠– أسرار البيان.
١١– الأسلوب القديم في التربية والتعليم.
١٢– المكتبة التاريخيّة.
١٣– نفائس المخطوطات.
١٤– شرح المتن في تاريخ قضاء المتن.
١٥– معجم المصطلحات العامّة.
١٦– معجم تحليل أسماء الأشخاص.
١٧– معجم تحليل أسماء الأماكن.
١٨– تاريخ أنطاكية الديني والمدني.
١٩– تاريخ حضارة دمشق وآثارها.
٢٠– تاريخ وادي التيم وجبل القلمون.
٢١– تاريخ بلاد حوران.
٢٢– التذكرة المعلوفيّة.

٢٣- رجال الحكومة والأمراء.
٢٤- العصريّات, وهو مجموعة من الأشعار لكبار شعراء العصر مع تراجم لهم.
٢٥- مجموعة في لبنان ونكباته.
٢٦- سِفْر الأحزان, شعر في جزأين.
٢٧- يوميّة الحرب الأولى ١٩١٤-١٩١٩م.
٢٨- ما رأيتُ وما سمعتُ.
٢٩- تاريخ شهداء الحرب الماضية.
٣٠- نكبات الحرب الماضية.
٣١- لبنان واللبنانيّون.
٣٢- درُّ الأسلاك في دراري الأفلاك.
٣٣- رسالة في الموسيقا.
٣٤- رسالة في التصوير.
٣٥- أعذب المناهل في إنشاء المقالات والرسائل.
٣٦- مشجّرات في العلوم والفنون.
٣٧- مجموع رحلات في سورية ولبنان ومصر.
٣٨- شعر العميان وآثارهم.
٣٩- شعر المجانين.
٤٠- شعر الخلفاء والملوك والأمراء.
٤١- ثلاث روايات تمثيليّة شعريّة غنائيّة.
٤٢- بنات الأفكار, وهو ديوانه الشعريّ.
٤٣- تارخ العلوم الفلكيّة والرياضيّة.
٤٤- تاريخ العصبيّات عند الأمم.
٤٥- تواريخ أدبيّة وعلميّة.
٤٦- الأمثال العربيّة العامّيّة.

٤٧- شرح الأمثال العربيّة العامّيّة.
٤٨- مفكّرات أدبيّة ولغويّة وتاريخيّة.
٤٩- ذيلٌ في شعراء النصرانيّة.
٥٠- مجموعة في الشعر المفقود والمشتّت.
٥١- عيسى إسكندر المعلوف وأسرتُه.
٥٢- حياتي, وهوكتاب كبير في أعمال المعلوف مفصّلةً.
٥٣- مجموع محاضرات المعلوف.
٥٤- مجموعات دواوين بعض الشعراء.
٥٥- تاريخ الأمير بشير الكبير, و(البقاع للبنانيّين) وتارخ آل قانصوه في بعلبك.

وهذه طُبع بعضها من دون ذكر اسم مؤلّفها لأسباب.

١- رسالة في «ما عند الأمم من الأمثال والحكم».
٢- مجموعة في الآثار القديمة التي ظهرت في الحفريّات.
٣- شرح لاميّة ابن الوردي وإعرابها.
٤- شرح لاميّة العرب وإعرابها.
٥- الإغراب في الإعراب.
٦- رسالة في علم الجبر.
٧- نيل المتَمَنَّى في فنون المعَنَّى, في فنون الزجل وتراجم الزجّالين والمؤلّفات في هذا الفنّ وتحليل مصطلحاته.

(ثبت الكتب المخطوطة هذا مستمدٌّ من كتاب «العلاّمة المرحوم عيسى إسكندر المعلوف» إعداد رياض المعلوف, نجل الأستاذ عيسى, ونشر مجلّة الرسالة المخلصيّة, صيدا ١٩٦١م).

أيها الأحبّة

إن الأجدادَ الأحرارَ تركوا لنا كتابًا جميلاً ولغةً جميلة وأوطانًا جميلة , ويلقي هذا على عواتقنا أن نعمل بكلّ ما أوتينا من قدراتٍ وملكاتٍ لنورّثَ الأجيالَ القادمة هذه الآياتِ البيّنات للجمال.

أيها الأحبّة,

تعني اللغةُ الجميلةُ فكرًا نيّرًا وإبداعًا واضحَ القسمات في ميادين الثقافة والتقانة والاقتصاد والإعلام. وتباهي أممُ عصرنا بأنّها أنتجت حضارات بإنماء لغاتٍ, وقدّمت إنجازاتٍ مستعمِلةً ما بثّت فيه أسباب الحياة من اللغات.

فقد عرفت شعوبُ الأرض إكسيرَ التقدّم وسرّ الازدهار, عرفت أن اللغة القويّة هي المفتاحُ لأبواب الحضارة والارتقاء العلميّ والتقنيّ والاقتصاديّ. ومن هنا يقول سيّدُ الفرنسيين في عصره نابليون: «علّموا الإفرنسيّةَ ففي تعليمها خدمةُ الوطن».

أيها الأحبّة,

عرف أجدادُنا قبْلَ غيرهم منزلةَ العربية في ارتقائهم الرّوحيّ والإنسانيّ, بل رأوا أنّها سببٌ من أسباب السعادة في الدّارين. واسمحوا لي أن أتلو على مسامعكم نداءَ أحدِ علمائهم الكبار. يقول أبو منصور الثعالبيّ في مقدّمة كتابه «فقه اللغة وسرّ العربية»: «من أحبَّ الله تعالى أحبَّ رسولَه محمّدًا, ﷺ, ومن أحبّ الرسولَ العربيّ أحبَّ العربَ, ومن أحبَّ العربَ أحبَّ العربيّة, ومن أحبَّ العربيّةَ عُني بها, وثابرَ عليها وصرفَ همّتَه إليها. ومن هداه اللهُ للإسلام, وشرحَ صدرَه للإيمان, وآتاه حُسْنَ سريرةٍ فيه, اعتقد أنّ محمّدًا ﷺ خيرُ الرُسلِ, والعربَ خيرُ الأمم, والعربيّةَ خيرُ اللغاتِ والألسنةِ, والإقبالَ على تفهّمها من الدّيانة, إذ هي أداةُ العِلم, ومفتاحُ التفقّهِ في الدّين, وسببُ إصلاحِ المعاش والمعاد. ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها, والوقوفِ على مجاريها ومصارفها, والتبحّرِ في جلائلها ودقائقها, إلاّ قوّةُ اليقين في معرفة إعجاز القرآن, وزيادةُ البصيرةِ في إثبات النبوّةِ التي هي عمدةُ الإيمان, لكفى بها فضلاً يحسُن فيها أثرُه ويطيبُ في الدّارينِ ثمرُه».

أيّها الأحبّة,

أتى على العرب حينٌ من الدّهرِ علّموا فيه لغتهم لأجناس الأرض المختلفة, فانتشر النّورُ حيث بلَغَ الحرفُ العربيّ. وبطريق الحرف العربيّ أهدى العربُ لأبناء البسيطة أسماءً عربيّةً جميلةً, وعقولاً مستنيرة, وأذهانًا مبدعة مفتّقة. وليتَ شعري, ماذا الذي دهى العربَ فغدوا عاجزين عن تعلّم لغتهم وتعليمها؟ ما الذي فقد العربُ, ففقدوا بفقده عواملَ القوّة وأسباب التقدّم؟ إنّ الذي فقدوه شيء واحدٌ, هو عشقُ المثالِ, والتوّقُ إلى ذلك الجميل القصيّ, الذي يستدعي الوصولُ إليه سلوكَ سبيل المجاهدة والمغالبة.

أيّها الأحبّة,

إنّ الذي أشير إليه هنا يعني أن ننمّي في أنفسنا محبّةَ العربيةِ الصّافيةِ الجميلةِ, التي يعزّ أن تتحلّى بهذه الصفات ما لم ندفع بها إلى معترك الحياة, في المنزل والمدرسة والجامعة والمختبر والصحيفة والإذاعة المسموعة والإذاعة المرئيّة والشابكة والمصنع والمزرعة والسّوق.وأن نبعد عنها كلَّ ما يفتّ في عضدها, ويوهن قوّتها ويعكرّ صفاءها ويشوّه جمالها.

سيدي الرّئيس

أساتذتي الأجلاّء

زملائي الأعزّاء

إنّ المهمّة الملقاة على عاتق مجمعنا تنوءُ بحَمْلها العصبةُ أولو القوة, وإنّ العقباتِ التي تعترض سبيل عملنا من النوع الذي يستلزم الاحتشاد والتهيّؤ. لكنّ الاجتهادَ في تحديد الأهداف والمقاصد, واستنفادَ الجُهد في التماسِ الطرائق العلميّة في تحقيقها, بعد التوكّل التامّ على المولى سبحانه, كلّ ذلك ممّا يسهّل الأمرَ ويعين في الأداء والإنجاز.

وفي الختام,

لبّيكِ يا لغةَ البيان والقرآن.

وعشتَ عزيزًا منيعًا يا وطني الحبيب.

وسَقْيًا ورَعْيًا لوليّ الأمر في بلدي, الذي يلحّ في الدّعوة إلى إعزاز العربية ونُصرتها.

والحمد لك يا ربِّي في البدء, وفي الختام, وحيث لا بدءٌ ولا ختام.

والسلام عليكم